هربر دكمجيان
الحركات الأصولية فى العالم الإسلامى

هذا كتاب لا يتكلم عن الإسلام ، ولا يتعرض له بالنقد ولا التجريح كما عهدنا فى كتب المستشرقين ، إنما يتحدث عن الحركات الإسلامية أو « الأصولية » كما يطلقون عليها فى مصطلحاتهم ، والتى يطلقون على نشاطاتها اسم « الإسلام السياسى » !

وقد أدخلناه فى قائمة النماذج المختارة لأنه يمثل لونا من نشاط المستشرقين أشرنا إليه فى نهاية الفصل الماضى وهو المتعلق « بجهاز الاستخبارات الثقافى » الذى هو من صميم أعمال المستشرقين ، أى دراسة ما هو قائم فى العالم الإسلامى من حركات ، والتعرف على أفكارها ، ونشاطاتها ، ومقدار قوتها أو ضعفها ، ومدى تغلغلها فى « الجماهير » ، ونوعية المنتمين لكل منها ، ونوع القيادة فى كل جماعة ، وهل هى دعوة سلمية أم جانحة إلي العنف ، وهل عملها « فوق الأرض » أم « تحت الأرض » (أى : علنى أم سرى) وموقف الدول منها ، وتأثير مواقف الدول فى سير تلك الجماعات . . وكتابة تقارير بذلك للدول « ذات الشأن » التى تتتبع نشاط تلك الجماعات لتحدد موقفها منها . وطريقة التعامل معها . ومن هذه التقارير ما ينشر ، مثل هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، الصادر عام ١٩٨٤ م ، ومنها ما يحتفظ بسريته ، فيظل سرا بين المستشرق الذي كتبه والدولة التى ينتمى إليها ، أو يتدارس فى مؤتمرات المستشرقين الدورية وغير الدورية التى تجتمع بين الحين والحين لتبادل المعلومات ، وتبادل الخبرات !

وليس فى نيتنا هنا – ولا من شأننا – أن نناقش ما جاء في الكتاب ، فهو ليس « أفكارا » تناقش ، إنما هو مسح شامل للحركات الإسلامية ، وتقرير مفصل عن تكوينها وأنواع نشاطها واتجاه كل منها .

إنما يعنينا منه – ومن أمثاله – أمران :

الأول : أنه مشوب من أول لحظة ، لأنه دراسة للحركات الإسلامية لا من أجل الدراسة ، ولكن من أجل العمل على القضاء عليها ! وفرق بين رؤيتك للشئ لكى تتعرف عليه ، وبين رؤيتك له على أنه خطر داهم تريد أن تتقيه ، أو تتخلص منه !

فى الرؤية الأولى سترى الشئ فى حجمه الحقيقى – في حدود الاختلاف المعهود بين ناظر وناظر– وسترى المزايا والعيوب ؛ دون حقد على المزايا ولا شماتة في العيوب ! وفى الرؤية الثانية ستنظر وأنت متوجس ، فتتضخم فى حسك المخاطر ، وتتلاشى المزايا ، وتبرز العيوب ، ويكون همك من الرؤية أن تتعرف على المقاتل التى يمكنك منها أن تقضى على خصمك ، أو تتقى شره على الأقل!

والغرب عامة يرى الإسلام خطرا يجب الخلاص منه ، والقضاء عليه !

ذلك أنه منذ هزيمة أوربا فى الحروب الصليبية الأولى ، ومنذ القضاء على آخر دويلة إسلامية في الأندلس – دويلة غرناطة – سنة ١٤٩٢ م والغرب يعمل بدأب لمحاولة القضاء على الإسلام . وفى القرنين الأخيرين تركز التدبير والتفكير فى محاولة القضاء على الدولة العثمانية على أمل أن القضاء على الدولة سيقضى على الإسلام . وتم بالفعل القضاء على الدولة العثمانية ، وفرك الغرب يديه سرورا أن التدبير قد نجح ، وأن الإسلام لن يعود له وجود . .

ولكن قدر الله كان فى اتجاه آخر . .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠]

لقد كان زوال دولة الخلافة هو نفسه من بواعث الصحوة الإسلامية !

وجن جنون الصليبية الصهيونية ، وانبرت تواجه « الخطر » بكل ما تملك من وسائل المواجهة ، ومن بين ذلك تجنيد المستشرقين ليكونوا جهاز استخبارات ثقافى ، يدرس الأحوال ، ويقدم التقارير !

أما الأمر الثانى الذى يعنينا من هذا الكتاب وأمثاله ، هو ما يقدمه أصحابها من تفاسير لقيام الصحوة الإسلامية .

كل شئ إلا أن تكون هى العودة إلي النبض الطبيعى لهذه الأمة ، الذى عاشت به خلال القرون !

أزمة اقتصادية . أزمة حربية . أزمة ثقافية . أزمة سياسية . أزمة بحث عن الذات . أزمة تخلف .. أزمة فكرية .. فى جميع الأحوال هناك أزمة هى التى أدت إلي قيام الصحوة !

ووجود الأزمة – أو الأزمات – وتأثيرها فى الصحوة أمر لا ينكره أحد ... ولا حاجة لإنكاره !

إنما القول بأن الأزمات – خلال التاريخ الإسلامى كله – كانت هى السبب فى حدوث صحوة ، كما يقول هذه الكاتب ومن ينحو نحوه – فهو قول يغفل مجموعة من الحقائق لا يسهل على المستشرقين ذكرها ، وإن عرفوا أنها حقائق :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤]

الحقيقة الأولى – والكبرى – أن الإسلام دين الفطرة :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]

فدخول الناس أفواجا فى دين الفطرة أول مرة ، ودخول شعوب بأكمها فيه فى مرحلة تالية من تاريخه ، وبقائه حتى اليوم برغم كل الكوارث التى انصبت على المسلمين ، ودخول مئات وألوف فيه كل عام فى أوربا وأمريكا رغم سوء أحوال المسلمين ، وإعطائهم المثل السيئ من أنفسهم .. كل ذلك له دلالة على أنه دين يتفق مع الفطرة ، ويلبى حاجاتها السوية ، ويبث فى قلوب معتنقيه طمأنينة لا يجدونها فى غيره :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

[الرعد : ٢٨]

وهذا ذاته يفسر عودة المسلمين إليه كلما انحرفوا عنه ، عودة « تلقائية » لا تحتاج إلي عنصر خارجى !

والحقيقة الثانية أن هذا الدين قد طبق فى واقع الأرض بضعة قرون ، كانت من أكثر قرون التاريخ إشراقا ، وتحضرا ، وتقدما ، واستقرارا ، بينما كانت أوربا ما تزال تعيش فى قرونها الوسطى «المظلمة» باعترافهم !

فهو ليس شعارات مرفوعة فى الهواء ، ولا مجرد أمانى ، ولا مُثلاً غير قابلة للتطبيق ، ولكنه رفعة إنسانية فى مقدور الإنسان العادى ، والإنسان الممتاز يجد فيه مجالات للارتقاء ، والإنسان الهابط يستطيع أن يحاول إذا أراد : «ولكل درجات مما عملوا» «فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله» ويتالف من المجموع مجتمع يغلب الخير فيه على الشر . . ووجود هذا التاريخ حيا فى أذهان المسلمين هو فى ذاته دافع إلى العودة كلما انحرف الناس !

والحقيقة الثالثة أن الله تكفل سبحانه وتعالى أن يبعث على رأس كل قرن من يجدد للناس دينهم ، أي يعيد توثيق الصلة بين الناس ودينهم كلما فترت هذه الصلة أو أصاب الران القلوب !

تلك عوامل ذاتية أسهمت فى إحداث الصحوات الكثيرة التى حدثت فى تاريخ الإسلام .

فإذا جاءت الأزمات – وهي تجئ بحكم احتكاك البشر بعضهم ببعض – فإنها تشكل عاملا مساعدا ، يشبه العامل المساعد الذى ينشط التفاعل الكيميائى دون أن يكون سببا فيه . بل إن بعض الأزمات التى مربها المسلمون كان أمثالها سببا فى زوال دول وحضارات وشعوب بادت ولم يعد لها وجود ، أو صار وجودها هامشيا لا يحسب له حساب .

فالأزمة وحدها لا تنشئ صحوة . . وهى مع الشخص أو الشعب الذى فقد حيويته يمكن أن تكون قاتلة . إنما تكون حافزا للحركة والنشاط عند من بقيت عنده حيوية قابلة للانبعاث ، وهذا هو حال الإسلام . وقد التفت «جب» إلى هذه الخاصية فى الإسلام حين قال فى كتابه «وجهة الإسلام ? Whither Islam» : إن أخطر ما فى هذا الدين أنه ينبعث فجأة دون أن يعلم أحد سبب انبعاثه ، ولا المكان الذى يمكن أن ينبعث فيه !

والأزمة الحقيقية الكبرى هى أزمة الغرب مع هذا الدين ! فلا هو قادر – ولا

راغب – أن يتعايش معه على أنه أمر واقع لا سبيل إلى إلغائه أو تجاهله ، ولا هو قادر أن يقتنع أن المستقبل لهذا الدين !

فأما الأولى فسببها حقد « لا عقلاني » يملأ قلوب الغرب تجاه الإسلام ، من رواسب الحروب الصليبية ، يخيّل للغرب أن الإسلام خطر على وجوده وخطر على مصالحه . ولو كانت « مصالحه » مشروعة لما استشعر الخطر عليها من الإسلام، فالإسلام لا يحارب المصالح المشروعة للبشر ، ومن مفاهيمه الأساسية أن الله يحب المقسطين . ولكن لأن « مصالحه » المزعومة هي السيطرة الشريرة على البشر ، فهو لهذا يكره القوة التي جندت نفسها لمقاومة الطغيان ، ويريد أن يسحقها سحقا ليخلو له الجو دون حاجز ولا رقيب .

وأما الثانية – المتعلقة بالمستقبل – فسببها الغرور « اللاعقلاني » الذي يملأ قلوب الغرب ، والذي يخيّل إليه أنه ملك القوة التي لا تقهر ، ولا تنهزم ، ولا تبيد . ولأنه لا يؤمن بالسنن الربانية التي يؤمن بها من كان قلبه موصولا بالله ، فهو في غشاوة عن السنة التي تقول : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام : ٤٤ ، ٤٥]، والسنة التي تقول : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ** ﴾ [يونس : ٢٤] والسنة التي تقول : ﴿ **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١٤٠]

أما المسلمون فهم في وعد الله الدائم : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور : ٥٥]